

أخلاق القرآن

للدكتور عبد الوهاب عزام

- ١ -

أعرض في مقالات قليلة أميات الأخلاق في القرآن ، كيف بينها الكتاب الكريم وكيف دعا إليها بمد أن أقدم مقدمة وجيزة تبين المقصد الآخر الذي قصد إليه القرآن من تربيته وتعليمه :

سئلت عائشة رضي الله عنها عن الرسول صلوات الله عليه ، فقالت : كان خلقه القرآن . فأخلاق القرآن هي التي تجلت في محمد خاتم النبيين وأصحابه ومن تبعهم وصار على نهجهم من بعد . وإنما يظهر صلاح القانون حين إنفاذه ، ويتبين سداد الرأي حين يختبره العمل ، ويُعرف رشاد الطريقة حين تهدي السائرين عليها إلى الناية المثل . فإذا أردنا أن نقدر أخلاق القرآن فإنما نقيسها في سيرة من عملوا بالقرآن

كل ما يزدان به تاريخ الإسلام من سير الملوك والولاة

ولطفي باشا له تاريخ في الدعوة إلى العامة ، ولكنه مع ذلك يكره التبذل والإسفاف في الخطب والمحاضرات ، ولو سمعته وهو يخاطب لمعرفة أن دعوته إلى العامة لم تكن إلا دعاية أراد بها أن يشغل الجمهور عن المناوشات التي كانت تقع بين أرباب الأقلام أيام الصيالي بين الجريدة والمؤيد واللواء ، فلما جد الجد وصار مديراً للجامعة المصرية أعلن أن اللغة العامية لغة للمواضع وأنها لا تملك القدرة على التعبير عن أفكار الخواص ، في حديث أذيع باسمه في مجلة الهلال

أما بعد فإني أنا مما ابتدأت به هذا الحديث

كنت أريد أن أشرح كيف اختلفت الآراء في سبب زفول خطيباً ثم اندفعت إلى شجون من الأحاديث شغلتنى عن الموضوع الأسيل ، وإن كانت تتصل بي أوثق اتصال . فإن استعطف للقراء هذا الفن من التشریح فسأرجع إليه بعد حين

زكي مبارك

والفقراء والقضاة والمعلماء والصالحين وغيرهم ، فهو أخلاق القرآن تتجلى في صور مختلفة . فإن رأيت ملكاً من المسلمين ملك الدنيا ولم تملكه ، وسيطر على الأرض ولم تسيطر عليه ، فساس عباد الله ببدل الله ، وأنتم أنفسكم ليربح رعيته ، وراقب فيهم ربه ليله ونهاره ، فهذا من أخلاق القرآن . وإن رأيت ولياً دخلت الدنيا يده ولم تدخل قلبه وكف يده عن المحارم ولم يأل جهداً في العمل لخير الناس ، فهذا من خلق القرآن كذلك . وإن رأيت قائداً يحترق الممالك ، ويقذف بنفسه في المارك ، يفتح البلاد ولا يمتنع للعباد ، قد ملكت الفناعة قلبه ويده ، وكفبه المدل عن المدوان ، فهذا خلق القرآن في أحد مظاهره . وإن رأيت قاضياً كد عقله في معرفة الحق والذنب ، وآثر المدل وجانب الجور وأخلص لله فكره وحكمه ، وأقضى مضجعه عظم التبعة ، فذلك من قضاة القرآن . وإن رأيت عالماً توجه إلى الله بفكره ، وأدام النظر في ملكوت السموات والأرض ، ودأب في البحث ابتغاء الحق لا يميل مع الهوى ولا يرجو إلا وجه الله فهو من علماء القرآن عدل أصحاب السطان ، وجهاد المجاهدين بالحق ، وإحسان الحسين في كل عمل ، وطلب الحق والصبر عليه ، ودفع الظلم والنفور منه ، والاضطلاع بأعباء الحياة ، والصبر على المكاره والتثبت في الشدائد ، كل ذلك من أخلاق القرآن . والغلاصة أن الحياة في أقوى مظاهرها ، وأحسن وجوهها ، وأعدل سيرها ، وأرحم قوانينها ، وأجل أعمالها ، كل أولئك تقصد إليه أخلاق القرآن

من يتدبر القرآن يعرف أن المقصد الآخر الذي ترمى إليه تربية القرآن هو أن يحرر الإنسان من أهوائه وشهواته ، وأن تقوى نفسه بالأخلاق القوية للقوية ، وأن يزود عقله بالمعرفة ، ثم أن يعمل بهذه النفس المحررة القوية وهذا للعقل للقويم في معترك الحياة مبتثياً الخير لنفسه وللناس كافة . ذلكم مقصد القرآن فيما يسلم من الأخلاق

يريد القرآن نفساً محررة من الأهواء والشهوات ، وسأبين هذا من بعد ، ولكنني أسارع فأقول هنا : ليس معنى التحرر من الشهوات الحرمان منها ؛ فإن القرآن يريد للناس أن يستمتعوا بهذه الحياة ، ولا يزوروا عنها ويتجنبوها : « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب

السرفين . « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » « وابتغ فيها آثاكَ الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب الفاسدين »

القرآن لا يدعو إلى الرهبانية ولا يرشاه ، وإنما يدعو الإنسان إلى أن يرى نفسه في معارك الحياة مزوداً بالأخلاق القوية للفاضلة ، مريداً الخير لنفسه وللناس حتى يمشى راضياً مرضياً . فمن اعتزل معارك الحياة فقد فرّ من الواجب ، وجنح إلى الراحة ، وآثر البطالة . وليس تمسكه بالأخلاق للفاضلة بمد هذا إلا كما يتسلح الجندي ثم يترهب في دبر . للعبادة الحق في شرعة الإسلام هي الجهاد في هذه الحياة . كل عمران في الأرض ، وكل إحسان إلى النفس أو الأقرباء أو الأصدقاء أو عامة الناس أو إلى الحيوان الأحمى ؛ كل هذا عبادة بأمر بها الإسلام بل يمدّها أفضل المبادات . وقد قال أحد صوفية المسلمين : « ليست الولاية أن يعنى الإنسان على الماء أو يطير في الهواء ، ولكنها أن يعمل الإنسان في الأرض فيزرع أو يتجر وينعم بالعيش وهو لا يفكر عن الله طرفة عين » ومن أجل هذا كانت المراقبة في الثنور ، أى حماية حدود البلاد ، من أفضل المبادات عند المسلمين . وكما يحدثنا التاريخ عن علماء أتياء أقاموا في الثنور وربطوا العدو ، برون أن عبادتهم وورعهم لا ينتيان عن هذه المراقبة شيئاً . ولأن المراقبة عبادة سمي الصالحون في بعض البلاد الإسلامية صابطين وسمي رباطا المكان الذي يشتكف فيه التبعيدون

إنما يريد القرآن من التحرير من الشهوات أن يسيطر الإنسان على نزواته فيلأتم بينها وبين الحق والخير وضل أو يكف حراً بمقله لا مبدأ بهواه

مقصد الإسلام الأخير هو تحرير النفس من الأهواء والشهوات وتقويتها بالأخلاق الفاضلة وتحرير العقل من الأهواء كذلك ، وتقويته بالمعرفة ، ثم العمل بنفس محررة قوية ، وعقل حر واسع ، في أرجاء هذه الأرض لخير للناس . فأما للتحرر من الهوى فقد أسره القرآن في آيات كثيرة وافقت في الدعوة إليه بأساليب مختلفة . يقول القرآن الكريم : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك

عن سبيل الله . » ويقول : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقبلة وجعل على بصره غشاوة ؟ » ويقول : « أفن كان على يمينه من ربه كن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم . » ويقول : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى . »

أرأيت كيف ينهى القرآن عن الهوى ويمدّه معطالاً لمعارف الإنسان وعقله وسمعه وبصره ويراها رأس كل ضلالة ؟

اشتد القرآن في النهي عن اتباع الأهواء ، حتى نهى عن الأخذ بالظن ، لأن الإنسان إذا لم يسر على بينة مال به الهوى الخفى وأوحى إليه الظنون المختلفة : فيظن الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، والخير شراً ، والشر خيراً ، كما ينزع هواه وتغلب نفسه . وما أكثر ما نهى القرآن عن الظن ، قال : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم » ، وقال : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » ، وقال : « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يبنى من الحق شيئاً » . بل بيّن القرآن أن ضلال الناس ناشى عن اتباع الظن فقال : « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن »

هكذا يشتد القرآن الكريم في الدعوة إلى تحرير النفس والعقل من الأهواء وتبرئتهما من الظنون ، ليقارب الإنسان الصواب جهده ، وتستقيم له طريقة للفكر بطريقة العمل وأما تقوية النفس وتهذيبها بالأخلاق الفاضلة ، فسمي بيانه حين تفصل الكلام في الأخلاق التي دعا إليها القرآن . وأما تقوية العقل وتقويته وتزويده بالمعرفة ، فقد دعا القرآن إلى الانتفاع بالعقل والنظر في ملكوت السموات والأرض وجعل الذين لا ينتفعون بقولهم كالأنعام أو أضل ، وقال : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض — أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء — قل سيروا في الأرض فانظروا » ولقد دعا القرآن للناس إلى مظاهر للكون ودعاهم إلى التفكير فيها ليتعرفوا أسرارها « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والنفلك التي تجري في البحر بما ينفع للناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر

تسومها ببدل الله طوعاً أو كرهاً . ولا يزال دعوة القرآن مسموعة ،
ولا يزال المثل للناس مضروباً ، ولا يزال الأمل معقوداً بأن يحيى
هذه الدعوة الأخلاقية الأمم مرة أخرى . لا يزال في هذه الأرض
خشب وبركة ، ولا يزال في هذا للسحاب برق ورعد ومطر ، لا تزال
في هذه للنفوس حياة وفي هذه للقلوب خير . وإن مع اليوم غداً
وسأين في الغالات الآنية أمهات الأخلاق في القرآن
إن شاء الله .
عبد الرهاب عزام

بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » وكثير في القرآن مثل
هذا ، وما هذا للنظر إلا وسيلة المعرفة ، وهل أنج معارف البشر
إلا للنظر في ملكوت السموات والأرض ؟ وقد أمر القرآن
بالاستزادة من العلم فقال : « وقال رب زدني علماً »

وأما للعمل فهو المقصد الذي يقصد إليه القرآن من تعليم
الأخلاق للفاضلة ، فالقرآن كما قدمنا لا يريد رهبانية ولا فراراً من
الجهاد ولا خوراً وإشفاقاً من الاضطلاع بأعباء الحياة ، وإنما يريد

للمعمل والدأب والجهاد . أمر القرآن
بالعمل وأشاد بذكر العاملين في آيات
كثيرة ، وبين أن ندافع الناس سبب
لممران الأرض ، « ولولا دفع الله للناس
بعضهم ببعض لفسدت الأرض » وبين
أن الخير لا يدوم إلا بالدفاع عنه والاجتهاد
في حمايته « ولولا دفع الله للناس بعضهم
ببعض لهدمت سوامع ويبع وصلوات
ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً
ولينصرون الله من ينصره »

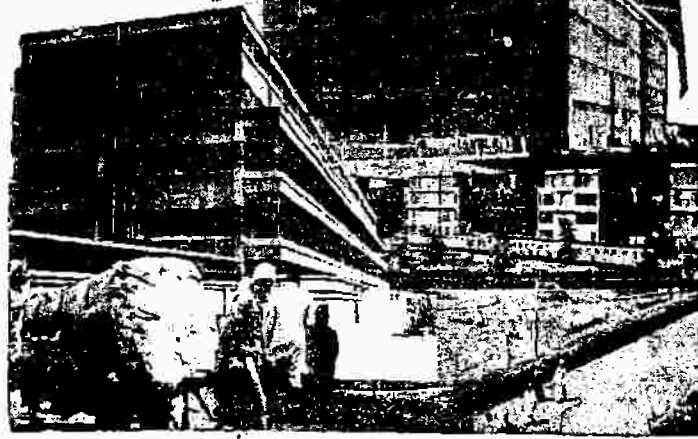
ولم يقبل للقرآن عنبر الأذلاء الذين
يمتدرون بالهجز عن العمل أو يتغلب
الأقوياء عليهم ، وصدق إمام عن الخير
فقال : « الذين تنوqام الملائكة ظلالي
أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا
مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن
أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ » .

فهو يدعو إلى الهجرة حيث يستطيع
الإنسان للعمل « ومن يهاجر في سبيل الله
يجد في الأرض مراعماً كثيراً ومعة »
ذلكم إجمال الكلام فيما يقصد إليه

للقرآن من تهذيب النفس وإصلاح الخلق
والجهاد في الأرض . وهو الذي ينته
أفعال الرسول وأصحابه ومن تبعهم
ياحسان ، فقد خلق للقرآن الجماعة
الفاضلة ، وخلق الجماعة الدولة ، وأيدت
الدولة الحق والعدل ، وسيطرت على الأمم

نخبة مصر الصناعية ..

تمثل في ..
مصانع
ومنتجات ..



شركة مصر للفنل والنسيج